# الفصل الحادي عشر

# الاتصالات المباشرة

## الاتصالات الشخصية

يذكر ابن هشام أن أبا بكر الصديق ﷺ هو الذي دعا عثمان بن عفان والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، إلى الإسلام ، وأنهم استجابوا لدعوته : «فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فَأسلَموا وصلوا»[1].

● ومن الجلي أن الصديق استند إلى الثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها بين الناس ، فأثمر الاتصال الشخصي ذلك النجاح الدعوي الباهر . وهذه حقيقة يؤكدها علم الاتصال الحديث ، فيقول «ألكسيس تان» إن «الثقة العظيمة في المصدر ـ وهو هنا الداعية ـ تؤدي إلى : «تغيير فوري لدى المتلقي أسرع من الاستجابة للمصادر ذات الثقة المنخفضة»[2]. وهذه بدهية يلمسها الدعاة والناس العاديون . وهذه الحقيقة ، أو البدهية الدعوية ، يجب أن تكون نصب أعيننا في اتصالاتنا الشخصية بالآخرين . وفي حالة تدني مستوى الثقة ، أو غيابها ، لن يكون من حق الداعية أن يأمل في استجابة إيجابية له .

- فيجب على الدعاة أن يهتموا بالاتصالات الشخصية ، وأن يحافظوا على ثقة المدعوين بهم ، وقد بينت الإحصاءات أن المهتدين إلى الإسلام في الغرب إنما اهتدوا بسبب اتصالهم بأفراد مسلمين صالحين . ففي الاتصال الشخصي يقف

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٢) دكتور حسن عماد مكاوي ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ٥٤ .

الداعية والمدعوين وجهاً لوجه ، وفي ذلك الموقف تعمل الحواس الخمس لدى الطرفين ، ومن ثم يقع التفاعل بينهما ، وعلى نحو إيجابي غالباً . وبالاتصال الحكيم المخطط ، يمكن أن تتكون العلاقات والصداقات . ويستطيع الداعية أن يعرف مباشرة تأثير رسالته ، ومن ثم إجراء التعديلات اللازمة لتحقيق الغاية المرجوة[1].

● لكن أبابكر الصديق كان استثناءً فريداً في سرعة استجابته لدعوة النبي ﷺ له للإسلام . ومرد ذلك إلى الثقة المطلقة التي كان يضعها في كل كلمة يقولها النبي . أما الآخرون فكانوا يترددون ويفكرون قبل الاستجابة . ولا بد أن يعرف الدعاة أن ذلك من طبيعة الاتصالات الشخصية . ويقول النبي ﷺ في ذلك : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كَبْوَة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، عَكَم عنه حين ذَكَرْتُه له ، وما تردد فيه »[2].

- إذن الدعوة بالاتصال الشخصي تحتاج إلى تمتع الداعية بثقة من يدعوهم ؛ ويجب أن ينتبه الداعية إلى أن هناك فروقاً فردية في ثقة المدعوين به . ولهذا يحتاج الداعية إلى « فقه الحال » ـ أعني تقدير مدى ثقة الأفراد به ؛ ولا يجب أن يدهش من سرعة استجابة فرد ، أو بطء استجابة آخر .

● ونحن لا نجانب الصواب إن قلنا إن « مصعب بن عمير » ﷺ كان أول الدعاة بالاتصال الشخصي في المدينة المنورة . فعند انصراف النبي ﷺ بُعَيْد العقبة الأولى بعث مصعب بن عمير مع الأنصار العائدين إلى يثرب : « وأمَرَه أن يُقرِئهم القرآن ويعلِّمهم الإسلام ويفقههم في الدين »[3].

ونزل مصعب عند أسعد بن زُرَارَة ﷺ . وقد وَفَّق الله تعالى ذلك الداعية الرائد في إدخال زعيمين كبيرين في الإسلام هما : سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر .

---

(١) دكتور حسن عماد مكاوي ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ٥٤ .

(٢) السيرة النبوية ؛ جـ١ ص ٢٥٢ .

(٣) نفسه ؛ جـ١ ص ٤٣٤-٤٣٧ .

وكان مصعب بصحبة أسعد بن زُرَارَة حين التقى بالزعيمين الكبيرين الواحد تلو الآخر . ولا يذكر ابن هشام تفاصيل اللقاء . فقد تكلم مصعب وقرأ شيئاً من القرآن ؛ فَأسْلَم سعد بن معاذ . وتكرر الموقف مع أُسَيْد بن حُضَيْر . غير أن لنا أن نتخيل أن الداعية الرائد ذكّر الزعيمَيْن بسُخْف الشرك وعبادة الأصنام التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، وبأن من غير المعقول أن يصنع الناس أصنامهم من الحجارة ثم يعبدونها ! ولابد أنه شرح لهم الدين الجديد ، وعقيدة « لا إله إلا الله محمد رسول الله ». وربما تطرق إلى بعض المبادئ العامة الرائعة للإسلام .

● وكان بعث مصعب بن عمير سُنَّة في تاريخ الدعوة الإسلامية ؛ ولقد أرسل عمرو بن العاص والي مصر البعوث إلى « برقة » من أجل الدعوة إلى الإسلام ، والاتصال بالسكان والتعرف على المنطقة[1]. وسار على هذه السنة الصحابة والتابعون ، والقادة العسكريون والعلماء ، وكانت النتائج : اندماج السكان في العرب ، ومشاركتهم في الجندية وممارسة كل الحقوق ، كسائر العرب ، دون تفرقة أو تمييز[2]. « فعقبة بن نافع ضرب أروع الأمثلة في الدعوة إلى الإسلام والتبشير به بين قبائل : البتر والبرانس ، ولواته ، وزواغة ، ونفوسة ، وهوارة ، وزناتة . ولقد ظهر حماسه الديني وهدفه التعليمي والتثقيفي في الدعاء الذي دعَا به عندما باشر جنده ومساعدوه عملية تنظيف المكان لإقامة قاعدة الإسلام الأولى في إفريقية ، وهي القيروان :« اللهم املأها بالمؤمنين ، وعمِّرها بالمطيعين لك والعابدين ، واجعلها عزّاً لدينك ، وذلاً لمن كفر بك ، وأعز بها الإسلام »[3].

- وصارت مدينة طنجة مركزاً لتعليم الإسلام لغير المسلمين والعربية لغير العرب . ونحن اليوم نرى النجاحات التي تحرزها الاتصالات الشخصية . لكن هذا لا يجب أن يحجب عنا حالات الإخفاق التي لا مفر منها . فلو أن أي داعية

---

(١) دكتور رشيد بو رديبة (وآخرون) ؛ الجزائر في التاريخ نشر المؤسسة الوطنية للكتاب ؛ بالجزائر - جـ٣ - ص ١٥، ١٦ .

(٢) نفسه ؛ ص ٢٧ .

(٣) نفسه ؛ ص ٢٩ .

اصطنع منهج «مصعب بن عمير» فإنه سينجح أحياناً ويخفق أحياناً . وقد حقق الداعية «مصعب» نجاحاً واسعاً في المدينة (يثرب) ولكن بقيت أربع قبائل على شركها ، هم : دار بني أمية بن زيد ، وخَطمة ، ووائل ، وواقف . وذلك بتأثير قائدهم الشاعر أبو قيس بن الأسلت[1]. ووراء النجاح والإخفاق عوامل عديدة ، في منهج الداعية ، وفي أحوال المخاطبين . وعلى الداعية أن يستوثق من سلامة منهجه ، وصحة معارفه ، وأن يحسن اختيار الوقت المناسب للعمل ، واللغة القادرة على الإقناع ، ويتذكر دائماً أن الهُدى بيد الله وحده ﷻ ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر:٨).

## حصانة ضد الإحباط

● إن النجاح والإخفاق يرتبطان بالداعية والمدعوين معاً . وقد علمنا رسول الله ﷺ تفاوت حالاتهم ، فقال : «مثل ما بعثني الله به من الهدَى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نَقِيةٌ قبلت الماء ، فَأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجَادِبُ أمْسَكَتِ الماء فنَفَعَ اللهُ بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قِيعَانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فَقِهَ في دين الله ، ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ به ، فعَلِمَ وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدَى اللهِ الذي أرسلْتُ به»[2].

- هذا الحديث الشريف يحصِّن الدعاة ضد الإحباط ، فهو يذكرهم بتفاوت مستوى المدعوين ، وتبعاً لذلك تفاوت درجة القبول . فربما ظن الدعاة أن عدم القبول راجع إلى تقصير منهم أو عيب في وسائلهم ، فتهبط هممهم . والحقيقة غير ذلك ، أعني أن التقصير قد يكون من جانب المدعوين .

● وعلوم الاتصال الحديثة تفيدنا في ممارسة الاتصالات من أجل الدعوة . فالاتصال يتم بعناصر أساسية ، وعلى الداعية أن يميز بينها وأن يحسن استغلالها .

---

(١) ابن هشام ؛ السيرة النبوية ؛ جـ١ ص ٤٣٤-٤٣٧ .

(٢) فتح الباري ؛ كتاب العلم ٢ باب – رقم ٧٩ .

فهناك : (١) مُرْسِل (٢) ورسالة (٣) ووسيلة (٤) ومستقبلين ، (٥) وتأثير يراد إحداثه (٦) وغاية قصوى يراد بلوغها[١].

وعلى الداعية أن يكون على وعي بهذه العناصر لكيلا يضطرب أو يتناقض ، أو يخلط . فالمُرْسِل هو الداعية ، والرسالة هي الإسلام ، والوسيلة ـ هنا ـ هي الاتصال المباشر ، والمستقبلين جماعة من المسلمين أو من غيرهم ، والتأثير المراد هو تعبيد العباد لخالقهم أو جذب عصاة المسلمين إلى طاعة الله ، وإقناع غير المسلمين بصحة الإسلام ، وغاية قُصوى هي الفوز بمرضاة الله وثوابه في الدنيا والآخرة .

## اتصالات النبي ﷺ بالأنصار

● وقد كانت دعوة النبي ﷺ للأنصار ـ أولاً ـ عن طريق الاتصال الشخصي .

- فيذكر محمد بن سعد في طبقاته أن : «أول من أسلم من الأنصار أسعد ابن زرارة وذكوان بن عبد قيس ، خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة ، فقال لهما : قد شغلنا هذا المصلِّي عن كل شيء ، يزعم أنه رسول الله».

«قال : وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التِّيهان متكلميْن بالتوحيد . فقال ذكوان بن عبد قيس لأسعد بن زرارة حين سمع كلام عتبة : دونك هذا دينك . فقاما إلى رسول الله ﷺ ، فعرض عليهما الإسلام ، فأسلما ، ثم رجعا إلى المدينة ، فلقي أسعد أبا الهيثم بن التيهان فأخبره بإسلامه ، وذكر له قول رسول الله ﷺ ، وما دعا إليه ، فقال أبو الهيثم : فأنا أشهد معك أنه رسول الله ، وأسلم»[٢].

● ومن المؤكد أن النبي ﷺ قد شرح للرجلين عقيدة التوحيد ، وقرأ عليهما آيات من القرآن الكريم ، أسَرَت قلبيْهما . فهذا ما تشير إليه باقتضاب عبارة «فعرض عليهما الإسلام» التي وردت ضمن الخبر .

---

(١) دكتور حسن عماد مكاوي ؛ ودكتور ليلى حسين السيد ؛ الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص٣٨،٣٩ (بتصرف)

(٢) الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد ؛ تحقيق د . حمزة النشرتي وآخرين ؛ المكتبة القيمة (دون تاريخ) ؛ جـ ١ ص ٣٠٤ .

- وتكرر الاتصال الشخصي مرة أخرى بين النبي ﷺ وبين جماعة أخرى من يثرب في «مِنَى» ، منهم معاذ بن عفراء وأسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك . وتكرر نجاح الداعية العظيم[1].

● وحاول نفر من مشركي قريش رد النصارى الذين أسلموا إلى النصرانية . فيذكر ابن هشام أن حوالي عشرين رجلاً من النصارى أسلموا على يدي رسول الله ﷺ في المسجد بمكة ، فقابلهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : «خَيَّبكم الله من رَكْبٍ ! بَعَثَكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لِتَأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مَجَالِسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال ! ؟ ما نعلم رَكْباً أحمق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه . لم نَأْلُ أنفسَنا خيراً»[2].

● فالاتصال الشخصي منهج أصيل وسُنَّة محمدية . وقد حدثت تطورات كبيرة في وسائل الاتصال بعد اختراع البواخر والسيارات والطائرات ، والهاتف ، وأخيراً الشبكة الدولية ، وما يسمى chat rooms ، وبعد الاختلاط الواسع بين المسلمين وغير المسلمين في العالم أجمع ، وظهور الأقليات المسلمة في معظم دول العالم ، ووجود جاليات غير مسلمة في بلادنا المسلمة .

● فهذه التطورات الهائلة يسرت الاتصال بين الناس ، وأتاحت للدعاة فرصاً ثمينة لتطوير خطابهم الديني لاكتساب مهتدين جُدُداً . والإحصاءات تدل عل انتشار الإسلام في الغرب ، وبين الطبقات المثقفة على وجه الخصوص . وقد أكد الأستاذ خالد عوض رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية أن أعداد الأمريكيين المهتدين إلى الإسلام قد تضاعفت أربع مرات بعد حادثة ٢٠٠١/٩/١١ وما أطلقته من حملات محمومة ضد الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام . وتشير الأرقام المنشورة إلى أن عدد المهتدين إلى الإسلام قد بلغ ٢٤ ألف شخص ، وهو رقم قياسي إذا قورن بالأرقام الخاصة بالسنوات السابقة على ٢٠٠١/٩/١١ .[3]

---

(١)الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد ؛ ص ٣٠٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٣٩٢ .

(٣) راجع كتابي ؛ مرض كراهية الإسلام ؛ ص ٥٠ .

● لكن الاتصالات الشخصية كان لها سلبياتها على المسلمين . فهناك أعداد كبيرة من أبناء المسلمين الذين «تغربوا» بتأثير الدعوات المضادة والاتصال الشخصي بغير المسلمين . وفي إفريقية وآسيا نجح التنصير في إغراء بعض فقراء المسلمين على اعتناق المسيحية . وفي الولايات المتحدة وأوربا أدَّى الاختلاط الكثيف إلى إخراج أعداد من أبناء المهاجرين المسلمين من دينهم . واستحلت بعض النساء المنحدرات من آباء مسلمين الزواج من النصارى واليهود .

- فهذه الظواهر تلقي على عاتق الدعاة أعباء جسيمة . وأعتقد أن المواجهة تحتاج إلى إنشاء مؤسسات إسلامية للدعوة عن طريق الإعلام ، والقنوات الفضائية ، والكتب ، والمراكز الإسلامية . والمسلمون في كل بلد قادرون على اقتراح الوسائل التي تناسب ظروف بلادهم . وأموال الزكاة كفيلة بالوفاء بمتطلبات هذه المشروعات . وهكذا نتقدم في تطوير الخطاب الديني .

● ومن البدهي أن كل وسيلة دعوية يمكن أن تستخدم ضد الدعوة . فهذه هي طبيعة الوسائل . ولقد حاولت شركة أمريكية استخدام الاتصالات عن طريق «الإنترنت» للتشكيك في القرآن الكريم . فنحن نعلم أن القرآن الكريم تحدى مشركي مكة البلغاء ، وقال لهم ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾
(البقرة:٢٣، ٢٤)

- ولم يأت أحدٌ بسورة من مثله ، رغم محاولات بعضهم . من ذلك مثلاً كلام مسيلمة الكذاب المسجوع ، المثير للسخرية .

● وجددت شركة أمريكية اسمها America on line المحاولات عن طريق الإنترنت لتجنيد كُتَّاب العالم كله ـ بالدولارات الغزيرة ! ـ لتأليف سورة مثل سور القرآن . والغاية من وراء ذلك تشكيك المسلمين في صدق القرآن الكريم . وتلقت الشركة كلاماً كثيراً زعم كاتبوه أنه مثل سور القرآن . وكان مضمونه في الأغلب كلام مسجوع يسب المسلمين .

● ولم تفطن الشركة إلى عواقب الفشل في محاولاتها ، فإنه يؤكد صدق القرآن الكريم ، إذْ لم يستطع أحد أن يؤلف «سورة !» تشبه أقصر سورة في القرآن الكريم . ولم يتشكك المسلمون في صدق كتابهم ، بل ازدادوا إيماناً به واحتقاراً لتلك الشركة وكُتابها المزعومين . وزاد عدد المهتدين الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد كارثة ٢٠٠١/٩/١١ . لأن كثرة الهجمات على الإسلام دفعت كثيرين منهم إلى شراء كتب إسلامية ، وترجمة معاني القرآن إلى لغتهم ، فجذبهم الإسلام ، دين التوحيد المنزه ، ودين العدل والمساواة ، ودين الإيثار ، إلى الدخول فيه . فهذه تغييرات إيجابية في أحوال المسلمين في خارج عالمنا الإسلامي .

● ومن المؤكد أن الخطاب الديني بالكتابة والتأليف والترجمة كان هو القنطرة التي عَبَرَ عليها الإسلام إلى قلوب الآلاف من الغربيين .

## الرسائل الشخصية

● واستعمل رسول الله ﷺ الرسائل الشخصية في الدعوة إلى الله :

- فأرسل كتاباً إلى قيصر ملك الروم ، حمله إليه دِحْية بن خليفة الكلبي .
- وأرسل كتاباً إلى كِسْرى ملك فارس ، حمله إليه عبدالله بن حُذافة السَّهمي .
- وأرسل كتاباً إلى النجاشي ملك الحبشة ، حمله إليه عمرو بن أمية الضَّمري .
- وأرسل كتاباً إلى المُقَوْقِس كبير القبط في مصر ، حمله إليه حاطب بن أبي بَلْتَعَة .
- وأرسل كتاباً إلى جَيْفر وعَبَّاد ابْنَيْ الجُلُندي الأزْدِيَّين مَلِكَيْ عُمان .
- وأرسل كتاباً إلى ثُمامة بن أُثال ، وهَوْذَة بن علي الحنفيَيْن مَلِكَيْ اليمامة .
- وأرسل كتاباً إلى المنذر بن سَاوّي العَبْدي ملك البحرين ، حمله إليه العلاء ابن الحَضْرَميّ .
- وأرسل كتاباً إلى الحارث بن أبي شُمْر الغَسَّاني ، ملك تخوم الشام ، حمله إليه شجاع بن وهب الأسدي .

- وأرسل كتاباً إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَري ، ملك اليمن ، حمله إليه المهاجر بن أبي أمية المخزومي[1].

● ولا يذكر المؤرخون [2] أن أياً من أولئك الملوك الكبار قد أسلم . حقاً تسلَّم بعضهم كتاب النبي ﷺ باحترام وتقدير ؛ أما الذين أسلموا فهم : النجاشي ، والمنذر بن ساوَى ، وجيفر وعباد ابني الجلندي[3].

● لكن ابن القيم يقول إن النجاشي الذي آمن بالنبي ﷺ ، وأكرم أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة ، والذي صلى عليه النبي ، هو نجاشي آخر غير الذي أرسل إليه رسالته يدعوه فيها إلى الإسلام[4]. وهذا الكلام معقول ومنطقي ، لأنه إذا كان النجاشي قد آمن ، فكيف يدعوه النبي إلى الإسلام؟

● والنتائج غير الإيجابية لرسائل النبي ﷺ تؤكد ما تعلمناه من كتاب الله تعالى ومن سنة نبينا عليه الصلاة والسلام ، وأعني بذلك أن الهداية بيد الله تعالى ، لا بيد الدعاة . فعلينا أن نبذل أقصى جهدنا ، وندع النتائج لله وحده .

● واليوم تزدهر الرسائل الشخصية عن طريق «الشبكة الدولية» ؛ وتثبت أنها وسيلة فعالة في نشر الدعوة (والدعوة المضادة بطبيعة الحال) . وقد نشرت الصحف قصة الأسرة اليهودية الأمريكية التي هاجرت إلى الكيان الصهيوني ، والتحق الأب يوسف كوهين بحزب «شاس» العنصري . وانخرطت الأسرة في الحياة الاجتماعية ثم تصادف أن التقى عبر «الإنترنت» في ما يسمى chat rooms بعالم مسلم من الدول الخليجية ، وتحاورا في الدين ، وانتهت المحاورة باعتناق «كوهين» للإسلام ، واتخاذ اسم «يوسف خطاب» بدلاً من كوهين . ثم لم تلبث أن تبعته زوجته[5].

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ٢/٦٠٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ زاد المعاد ؛ حياة محمد ؛ لهيكل .

(٣) أبو الحسن الندوي ؛ السيرة النبوية ؛ دار الشروق ؛ ط ٥ ؛ سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ؛ ص ٢٦٥ .

(٤) زاد المعاد في هدى خير العباد ؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ؛ سنة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م ؛ جـ٣ ص ٧٢ .

(٥) نشرت أولاً في صحيفة «بديعوت أحرونوت» الصهيونية .

● فالرسائل الشخصية لها أصل في السُّنة المطهرة ؛ وعلينا اليوم أن نستغلها بتدريب الدعاة عليها ، وتزويدهم بالأجهزة ، بل يجب أن تكون لدينا مؤسسة إسلامية كبيرة منظمة ترعى هذه الوسيلة الدعوية وتمولها وتزودها بكل ما تحتاج إليه . فبهذا نضمن أن تكون الرسائل علمية ، وعقلانية ، يبلغها دعاة مدرَّبون على مستوى رفيع . وكل مسلم يريد أن يستعمل «الشبكة» للدعوة يجب أن يحصل على تدريب يؤهله لذلك .

- وبهذه المؤسسة نواجه الدعوة المضادة عَبْر الشبكة أيضاً ، بدلاً من الرد في جريدة أو مجلة ، لا توصل الحقائق لمن تلقوا الأباطيل[1].

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحديات الحديثة

● هذه وسيلة فعالة في الدعوة إلى طاعة الله . وقد فرضها الله تعالى في عدة آيات قرآنية ، فقال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

- ومن البدهي أن يُوكَل الأمر إلى فئة أو جماعة تتخصص في القيام بهذا الواجب ، وبالدعوة إلى الخير . ولا بد من إعداد هذه الجماعة وتنظيمها للنهوض بهذه الواجبات . فالداعي إلى الخير يجب أن يعرفه ، ويعرف سنده الشرعي ، وطريقة الدعوة إليه ، والمنهج الذي يجب أن يتبعه ، وهو منهج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن : «فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه»[2].

● وقد وَصَفَ اللهُ تعالى الأمة المسلمة فقال جلَّ ذِكره ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(آل عمران: ١١٠)

---

(١) هذه الطريقة الخاطئة تمارس في شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٤هـ للرد على الدعوة المضادة .

(٢) الحسبة في الإسلام ؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية ؛ ص ٧٢ ، ٧٣ .

وجاء في تفسير هذه الآية أن الأمة الخيرة المقصودة هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم الذين هاجروا معه[1]. وهذا لا يمنع أن يُوصف أتباع رسول الله في كل العصور بهذه الخيرية إذا هم أمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر . وهم يفقدون هذه الخيرية إذا هم تقاعسوا عن النهوض بهذا الواجب الدعوي العظيم .

● وقد فسر الطبري رحمه الله «المعروف» و«المنكر» فقال :« وأصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله ، جميلاً مستحسناً ، غير مستقبح في أهل الإيمان بالله . وإنما سُمِّيت طاعة الله «معروفاً» لأنها مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله . وأصل المنكر ما أنكره الله ، ورأوه قبيحاً فعلُه . ولذلك سُمِّيت معصية الله «منكراً» لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها»[2].

- وفي الآيات التالية من سورة آل عمران يَسْبُغ القرآن الكريم وَصْفَ الإيمان والصلاح على الفئات التي آمنت بالإسلام من أهل الكتاب وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر فيقول ﷻ ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾(آل عمران:١١٣-١١٥) وهذا يؤكد أن الخيرية هي جائزة كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤمن بالله .

● ويذكرنا القرآن الكريم بالدعوة المضادة التي كان يقوم بها المنافقون والمنافقات ، فيقول ﷻ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:٦٧) .

---

(١) انظر تفسير الطبري للآية .

(٢) تفسير الطبري للآية رقم ١١٠ من سورة آل عمران .

- فالدعوة المضادة كانت تُمَارَس في عهد النبوة ، وفي العهود التالية ، ولكن مضامينها اختلفت ، كما أن قوّتها تباينت ، وقد بلغت الذروة في العصر الحديث الذي سخر العلوم الحديثة لمساندة الإلحاد والعلمانية والنسبية ، وإباحة الاستباحة ، والذي جعل بعض المنكرات الشرعية معروفاً قانونياً !

- وعن خطورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله إنه : « القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين . ولو طُوِيَ بساطه وأهمل علمه لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة . . »[1]

- ولا يشترط للمحتسب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ـ أن يكون معصوماً عن المعاصي كلها ، لأن مثل هذا الشرط يمنع الخَلْق جميعاً من أداء هذا الواجب ؛ واختلفوا في شرط إذْن الحاكم ، فقال الإمام الغزالي إنه شرط فاسد ، لأنه يتعارض مع الآيات والأحاديث التي أوجبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكنه اشترط إذْن الإمام في حالة المرتبة الخامسة التي تأتي بعد التعريف والوعظ والسب والمنع بالقوة ـ وهي مرتبة التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له ، حتى يمنع عما هو عليه ، كالمواظب على الغيبة والقذف . . »[2]

● وقد تضاعفت التحديات التي تواجه المحتسب في العصر الحديث ، بسبب « الهجين » الثقافي السائد في كثير من بلاد المسلمين ؛ فالدساتير والقوانين تبيح بعض الكبائر كالزنا وشرب الخمر ولعب الميسر ، والتبذير السفيه في إنفاق المال ، ورقص النساء شبه العاريات ، والدعوة إلى تطبيق النظم المضادة للإسلام ، كالاشتراكية ، والفنون التي تروج للفواحش . فالتعرض لهذه المباحات بالحسبة معناه انتهاك الدستور والقوانين ، وبذلك يعرِّض الداعي نفسه للملاحقة القانونية الجنائية .

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ؛ جـ٢ ص ٣٠٢ .
(٢) إحياء علوم الدين ؛ جـ ٢ ص ٣١١ .

- لقد صارت بعض المنكرات معروفاً بحكم القانون ؛ وصار بعض المعروف منكراً بحكم القانون . ولعل مشكلة الحجاب الواجب على المسلمات من أبرز الأمثلة على ذلك ، إذْ طُردت امرأة منتخبة عضواً في المجلس النيابي التركي من المجلس وحُرمت من دخوله لأنها محجبة . وبعض الإدارات الحكومية تفرض حلْق اللحية على منتسبيها قسراً ، وتمنع الملتحين من دخول نواديها وفنادقها ، وكذلك الذين يرتدون الزي الإسلامي (الثياب والقفاطين والعمائم) ، وتحرم المسلمات المحجبات من الالتحاق بالوظائف في أقسامها وإداراتها المختلفة . وليس بوسع الدعاة أن يأمروا بالمعروف الشرعي (المنكر قانوناً !) أو ينهوا عن المنكر شرعاً (المعروف قانوناً !) بسبب سطوة تلك الجهات .

● وعلى المحتسب أن يلتزم بالمعروف الذي يأمر به ، وأن ينتهي عن المنكر الذي ينهى عنه .

- فعن أسامة بن زيد قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار فتندلق أقتاب (أمعاء) بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرَّحَى فيجتمع إليه أهلُ النار فيقولون : مَالَك ؟ أَلَمْ تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بَلى ، قد كنتُ آمرُ بالمعروف ولا آتِيهِ وأَنْهَى عن المنكرِ وآتيه »[1].

● ويقول الشاطبي رحمه الله إن : « العالِم - إذا أخبر عن إيجاب العبادة الفلانية أو الفعل الفلاني - ثم فَعَله هو ، ولم يُخِلَّ به في مقتضى ما قال فيه ، قَوِيَ اعتقادُ إيجابه (لدى السامعين والمشاهدين) ، وانتهض للعمل به عند كل من سمعه يخبر عنه ، ورآه يفعله . وإذا أَخْبَرَ (العالِم مستمعيه) عن تحريمه (لعمل ما) مثلاً ، ثم تركَه ، فلم يُرَ فاعلاً له ، ولا دائراً حواليه ، قَوِيَ عند مُتَّبعه ما أَخْبَرَ به عنه »[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ جـ ١٨ ص ١١٨ .

(٢) الموافقات في أصول الأحكام ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ؛ نشر مكتبة محمد علي صبيح ؛ بالقاهرة ؛ جـ ٣ ص ٢٠٠ .

- وهذا شيء طبيعي ملموس . فإذا قال الداعية إن الصدق واجب ، ثم عُرف عنه الكذب ، ضعف إيمان المدعوين بوجوب الصدق ، وتراخي التزامهم بالعمل به تبعاً لذلك . فلكي تكون الدعوة مؤثرة ، يجب أن تُؤَدَّى بالقول والفعل معاً .

- فَلْيحذَرِ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر غضب الله تعالى وعذابه الأليم ، ولْيحرصوا على إتيان المعروف الذي يأمرون به والبُعدِ عن المنكرِ الذي ينهون عنه ، بقدر استطاعتهم .

- وَلْيَعْلَم الجميع أن هذا هو الطريق السديد إلى النجاح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالناس تنظر للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر على أنهم قدوة ، ومُثلاً تحتذى . فإذا دَخَّنَ أحدهم السجاير أو الشيشة ، ورآه الناس وهو يدخن ، كيف تكون استجابتهم له إذا نهاهم عن التدخين ؟ إنهم سوف يسخرون منه ، ويهزأون بعمله الجليل . وسوف يتشككون في حرمة التدخين ، ثم يُقبلون عليه دون حرج .

● وعلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يستعدوا لاحتمال المشاق من أذى العصاة واعتداءاتهم (وقد قُتل بعضهم بأيدي الفُسَّاق) . فيذكر شمس الدين محمد بن طولون أن غلاماً مصرياً أمر رجلَيْن بمعروف سنة ٩٢٢هـ فضرباه بخنجر وسط السوق ، ثم هربا . لكن بعض الناس أدركوا أحدهما وقتلوه[1]. وظاهر للعيان أن ظروف عصرنا تعقدت جداً وعسَّرت واجب الدعاة ، واضطرت الظروف كثيرين من الشيوخ والعلماء إلى مسايرة السلطات العلمانية التي جعلت بعض المنكرات مباحة أو واجبة (كحلق اللحى ونبذ الحجاب كشرط لبعض الوظائف) .

---

(١) راجع كتابه : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ؛ تحقيق محمد مصطفى ؛ نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ؛ القاهرة ؛ سنة ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م ؛ ص ٢٦ .

● وفي يوم ٢٠٠٤/١/١ توالت الأخبار عن شروع فرنسا وألمانيا في تحريم الحجاب بقوانين ، فيبادر شيخ كبير من شيوخ الأزهر بالإفتاء بحق فرنسا في ذلك ، ويقول إننا لا نستطيع أن نفرض على فرنسا ما نريد من قوانين . والشيخ لا يدري أن حرية العبادة تكفلها المواثيق الدولية بوصفها من حقوق الإنسان الأساسية . وفرنسا وألمانيا وقعتا على تلك المواثيق ، وعليهما احترامها . والحجاب ليس رمزاً ، كما يزعم بعض الفرنسيين ، ولكنه طاعة لله تعالى القائل في كتابه العزيز ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور:٣١) والطاعة عبادة ، وحرية العبادة مكفولة لكل البشر حتى عَبَدة الأوثان . ولكن نزعة المسايرة ، والحرص الزائد على الظهور بمظهر الاعتدال يورط البعض في الأخطاء .

● وصدق قول القائل : قتلتْ أرضٌ جاهلُهَا ! فالمسائل الدولية تحكمها قوانين دولية ومواثيق الأمم المتحدة ، فكان أحرى بالشيخ أن يستشير الخبراء قبل أن يفتي ويحرج الدعاة في الداخل والخارج ، ويقوي عزيمة فرنسا وألمانيا على قهر المسلمات على السفور!

## العمل السياسي

● وفي ضوء الواقع الراهن السائد في معظم بلاد المسلمين يتضح أن الأنشطة السياسية المنظمة أفعل وآمن في تطوير الخطاب الديني . فتغيير الدساتير والقوانين لا يتأتى إلا عن طريق تشكيل رأي عام يطالب به . والرأي العام يتشكل بتأثير الإعلام والفنون والآداب ، وتلعب الأحزاب السياسية دوراً رئيساً في ذلك . والانتخابات التشريعية هي التي تتيح الفرصة لاختيار النواب المطالبين بالتغيير . لكن تزوير الانتخابات ، فضلاً عن تقييدها ، والتحكم في الإعلام الثقيل من جانب السلطات العلمانية ، يجهض احتمالات التغيير ، فيبقى الحال على ما هو عليه أجيالاً متوالية . وهذا الجمود ظاهر في البلاد الخاضعة للعسكر الانقلابيين الذين يتوارثون الحكم الجمهوري ، كما هو الحال في مصر وسوريا والجزائر .

● وهناك فروق عديدة بين دول العالم الإسلامي يعرفها الدعاة من أهلها ، أهمها مدى احترام النظم للحريات العامة ، وحرية الدعوة والدعاة . ولذلك يصعب اقتراح الوسائل الأكثر أمناً وجدوى ، وكما يقال ـ أهل مكة أدرى بشعابها ـ فقد يكون العمل من داخل الأحزاب السياسية هو الطريق المتاح لداعية ، ويكون نشر مقال في جريدة أيسر لآخر ، وحضور مؤتمر أوْفَق لثالث ، وكل داعية في هذا « فقيه نفسه » ؛ ففقه الحال مطلوب ، لأن الأحوال تتباين وتتيح لداعية ما لا تتيحه لآخر . والمهم ألا يعرف الداعية اليأس أو القنوط أمام أية تحديات .

وفي ظروف الواقع المعاصر نصح المودودي رحمه الله الدعاة باجتناب العمل السِّري ، وأوصاهم بالدعوة في العلن ، مهما كان التضييق عليها وعليهم ، كما أوصاهم باجتناب العنف ، والله تعالى يقول ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)[1] .

* * *

(١) المودودي ؛ تذكرة دعاة الإسلام ؛ ص ٦٢ .



obeikandl.com